« هي جميلة لا مراء . ليست أجمل من رأى هام فى حياته ، ولا أجمل من رأى فى أيام فتنته وشغفه ، ولكنها جميلة جمالاً لا يختلط بغيره فى ملامح النساء . فلو عمدت إلى ترتيب ألف امرأة هى منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة فى مراتب الجمال المألوف ، وتحيت سارة عن الصف وحدها ... فيها تم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد فى تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكتري الصغيرة، واستدارة وجه، وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة فى لمحة الناظر ؛ وبين وجهها النضير وجسمها النضير جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقاً لتمام الحسن من كليهما ... لو تكفل بها مدبر معهد من معاهد التجميل الحديث لخفف شيئاً من قواسمها الرواح بين الربعة والطويل قبل أن يبرزها فى معرض الرقص والرشاقة . ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى أو عبد المجيد لما ضاره أن يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث قبل أن يزفها إلى الشاهنشاه »

فالمرأة المحبوبة شيء والمرأة الموصوفة على مثال الجمال فى معانيه المجردة شيء آخر

وامرؤ القيس لم يحب قط امرأة على مثال الجمال ، وإن كان قد وصف من النساء شمائل محمودة عند من ينظرون إلى ذلك المثال. ولعله فطن لهذه الشمائل بذوق الحاضرة وذوق الامارة ، لا بذوق الاعراب فى عماية الجاهلية . ولو أنه تعمد أن يرسم للأنوثة مثالا موافقاً لمعانى الجمال بمعزل عن المتعة أو عن الرغبة الجنسية لأعياه المطلب ، لتخلف الأوان وندرة الأسباب

سألنى سائل : أولا تكون المرأة إذن جميلة على شرط الفن والرياضة الحديثة إلا أن يكون وزنها قنطاراً أو دون القنطار ؟

وجوابنا الذى نطمئن به الكثيرين على مجمل : كلا ! قد تكون جميلة ووزنها قنطاران ، إذا تهيأ لامرأة أن تبلغ من الطول والجسامة ما تزن به القنطارين فى غير فضول واسترخاء

وسنتلو هذا المقال « حاشية على التفريع » نتم فيها ما ينبغي إتمامه من هذا البحث الذى لا فضول فيه !

عباس محمود العقاد

مائة صورة من الحياة

للأستاذ على الطنطاوى

٣ — مجنونه

أصبحت اليوم خائر النفس لَيقِماً ، فتركت عملى وركبت (الترام رقم ٦) الذى يجوز بدارى ثم يذهب فيخترق (الغوطة الشرقية) — حديقة الأرض — حتى ينتهي إلى (دوما) . فنزلت على ابن عم لى فيها طبيب، فلم يرِ أبلغ فى إكرامى من أن يحملنى بسيارته إلى (القصير) فيجمعنى باخواننا الكرام ساكنى تلك الديار . ولم يكن الدخول إلى (القصير) سهلا ولا ميسوراً ، وما كنا نطمع أن يؤذن لنا به ، فجعلنا نطيف بتلك الحدائق الواسعة الجميلة فما راعنا إلا القوم قد ملأوا الحدائق ، خارجين إلى النزهة والعمل. فجعلنا نكلم من نراه منهم من وراء الدرابزين فنسمع عجباً كما نرى عجباً . فمنهم من هو نائم على وجهه ؛ ومنهم من هو قائم على رجل واحدة ؛ ومنهم من يرسم فى الهواء دوائر وهمية ، ويكلم أشباحاً لا ترى ؛ ومنهم من هو باك منتحب ثم لا يلبث أن يضحك حتى يكركر من الضحك ... وما ظنك بسكان القصير ؟

وكان أعجب ما شهدنا من العجب رجلا عارياً إلا من خرقة تستر عورته ، ولحية له طويلة عريضة تبلغ والله سرته وتحجب صدره . حقيقة أقول لا مبالغة ولا مجازاً ، قد انتحى ناحية من حدائق (المارستان) ثم مشى فيها مقبلا مدبراً متبوّعاً عجلا ، فقلت لابن عمي : تنح بنا عنه وتنكب طريقه ، فربما بطش بنا ... وإنى لأرى جسما قوياً ، وعصباً مشدوداً ، وما فى كل من رأينا (أو ما رأينا فاننا نتحدث عن المجانين) من هو أظهر منه جنوناً ، وأبدى حماقة ...

قال : عجباً منك ! هذا الشيخ فضل الحموى !

قلت : بل منك والله العجب ... أترانى سائلا إذا هشم أنفه وهتمت أسنانى ، أفعل ذلك الشيخ فضل الحموي أم الشيخ محمد المغربى ؟ حسبي منه أنه مجنون ... فعدّ بنا عنه !

قال : إذن يذهب سعي باطلا ، فما حملك فى السيارة وجئت

بك إلى هذه الديار ، إلا لأريك الشيخ فضلاً الحوى ؟

قلت : دعنى . فلقد رأيت مجانين كثيرين ، شباناً ومشايخ ، وأدباء وعلماء ، وعاشقين ومعشوقين ، ولم يبق لى فى رؤية مجنون أرب ... وإنما غدا أربى فى رؤية عاقل

قال : هذا هو الذى تريد ... هذا رجل يتظاهر بالجنون ، وهو أعقل من العقلاء

قلت : أو يكون هذا ؟ أنذا لم أجد فى المدرسة والكلية عاقلاً والسوق والنادى أجده فى (البيمارستان) ؟

قال : نعم ، تعال انظر

فأقبلنا نميل إليه . فلما رأى السيارة مقبلةً قال مالا يفهم ، وأشار بيديه وأبدى سيما المجانين، فنظرت إلى ابن عمى وابتسمت، فأشار لى أن أنتظر؛ ونادى الرجل باسمه، فلما عرفه هدأ، وقال له:

هذا أنت يا فلان ؟

قال : نعم . وهذا الشيخ ... (وسمّانى)

فنظر إلىّ وابتسم ، فظننت أنه قائل لى مقالة كل (عاقل) يلقانى: أين العمة واللحية والشارب؟ كأن الشيخ لا يكون شيخاً إلا بهذا ! ولكن (المجنون) لم يقل شيئاً . فقال له ابن عمى :

ألا تعجب منه شيخاً حليق الوجه حاسر الرأس ؟

قال : ويحك يافلان ! ألا تعلم أنها إذا اتصلت الأرواح ، بطلت الأشباح ؟

وأفاض فى كلام مثل هذا بلثغة صحيحة وإلقاء متزن ، فقلت فى نفسى هذا من (عقلاء المجانين) الذين ألف فى أخبارهم أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابورى رحمه الله ، ولست آمن أن تدركه الآن جُنته فيؤذينا ، ووقفت حذراً ...

فلما انتهى قال له ابن عمى وقد امتد إلينا الظلام ونحن فى ظلال الأشجار

ألا تسير بنا إلى النور ؟

فقال لنا وهو يضحك ، وما رأيناه إلا ضاحكا :

لولا أننا هنا لقلت لكم (إن نوركم كاف) ولكن مثل هذا (النفاق) لا يقال هنا ...

فقلت : وله ؟ أولا ترى لنا نوراً ؟

فقال : إن فى كل كائن نوراً وجمالا ، ولكن العيون المدركات قليل ... إن الناس جميعاً يؤخذون بجمال القمر ، ولكن الشمس لا يؤخذ بجمالها إلا من كان له عين تصبر على نورها . ولذلك كان الشمسيون من الناس (والتعبير له) أقل من القمريين وأندر ؛ وهؤلاء هم الكبار من الصوفية ، فاذا جازوا مرحلة الشمس ونفذوا منها إلى منطقة السديم استوى عندهم جمال القمر وجمال النجم ، واستوت عندهم الظلمة، والنور لأنهم بلغوا مرتبة الفناء فى الموجد ، فلم يبالوا بعد بالموجودات ...

وتكلم فى مثل هذا أكثر من ساعة كلاماً ما سمعت مثله ولا قرأته ، وفسر آيات ، وتمثل بأبيات ، وذكر نظريات العلماء المحدثين حتى أدهشنى والله ، وكاد يمضى فى كلامه إلى الليل لولا أن قرع الناقوس ليدخلوا فودعناه وقلت له : لقد استفدت منك

فضحك وقال : لا ترفع صوتك فيسمعك أحد

قلت : وله ؟

قال : وله ؟ أعاقل يستفيد من مجنون ؟

وكان الحارس قد وصل ، فلما رآه الشيخ فضل غمرتى بعينه وعاد يقول مالا يفهم، ويشير إشارات المجانين ، فدعوت الحارس فسألته :

ما هو جنون هذا الرجل ؟

قال : أما ترى ؟ أما ترى لحيته وعريه ؟

قلت : بلى ، فماذا فى العرى ؟ أليس الرجال جميعاً والنساء على ساحل الاسكندرية وحمامات بيروت على مثل عريه ؟ ألا يتكشف (الكشافة) دائماً ؟ أما اللحية فقف فى السوق وانظر كم ترى من لحية . فلم أمسكتم بهذا وحده دون أولئك ؟

قال : هذا يقول بأن كل شىء هو الله . أما هذا جنون ؟ أما هو كفر ؟

قلت : من حسن حظ الشيخ محي الدين بن عربى أنه مات قبل افتتاح مستشفى القصير !

قال : إنه يتكلم ساعات فلا يفهم عنه أحد

قلت : كذلك كل الفلاسفة وكذلك أكثر المعلمين..

قال : ويسكت أحياناً يومين كاملين

قلت : هذا من العقل ، هذا ...

فنظر إلى الحارس نظرة فهمت منها أنه يعجب منى كيف لا أدخل المستشفى وأكون من أهله ! فأسرعت بالهرب قبل أن يقبض على بتهمة الجنون ...

« دوما »

على الطنطاوى